

صناعة الكلام في البلاغة العربية من منظور اللسانيات النصية

د/ نعيمة سعديّة

جامعة محمد خيضر بسكرة - الجزائر.

الملخص:

تحاول هذه الدراسة الحفر في البنية المعرفية العربية القديمة بفروعها المختلفة قصد الوقوف على الأطروحات والإسهامات المشتركة بين علوم العربية، ولسانيات النص، التي تقوم على دراسة اللغة، بوصفها أداة لممارسة التواصل، من خلال بعض الكتب البلاغية: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والمثل السائر لابن الأثير، والمقدمة لابن خلدون وغيرها، مما تضمن حديثاً عن "صناعة الكلام شعراً ونثراً"، وكون لسانيات النص بمباحثها العلم الذي يسعى إلى مقارنة النصوص في المنجز الخطابي بأشكاله المختلفة، ولعل في ذلك تقارباً يقف عنده كل قارئ باحث، في سبيل إحداث إطلالة تراثية لبعض المصطلحات، وبعض المفاهيم.

Abstract

This study is an attempt to dig into the epistemological structure of classical Arabic and its various branches so as to explore the intersections between Arabic studies and text linguistics. The main objective of this study is to study language as a means of communication in: Abd-kaher el 'Gorjani's Dalael el Iejaz and Ibn al-Athir's *Mathl al-Sair* and Ibn Khaldon's *Al'mokadima* and others. This is because the latter deals with the poetic and prosaic crafts of language, and also because one of the core subjects of text linguistics is the theory of Textuality as it is the discipline that attempts to approach the different patterns of the text as a product, which in turn could be considered as a point of convergence.

تمهيد:

تعدّ "لسانيات النص" فرعا معرفيا جديدا، ومجالا بکرا في البحث اللساني، تكون بالتدریج في النصف الثاني من الستينيات والنصف الأول من السبعينيات، وهو مصطلح لم یلق التوحيد من الجانبين، لا عند منظريه، حيث نجد هارفج (Harveg) یستخدم "Textologie" "علم النص" وتبعه فان ديك (Van Dijk 1980) للدلالة على هذا الاتجاه - وهو مصطلح أكثر قبولا عند سعيد حسن بحيري - في حين استخدم درسلر (w.Dressler) - علم دلالة النص - ونحو النص (TextGrammatik)، والتداولية النصية، ويختار "كلاوس برينكر" مصطلح (linguistischer text analyse)، أي "التحليل اللغوي للنص" في حين يرى سوينسكي (Swinskie) أن المصطلح الأنسب، والذي یعتبره جامعا لكل البحوث المتعلقة بالنص، ونموذج النص داخل علم اللغة، وهو مصطلح "لسانيات النص" (Texte linguistique)، ولا عند المترجمين، لأننا نجده مصطلحا قبيل بترجمات عدة: "علم اللغة النص"، "علم اللغة النصي"، "نحو النص"، "الألسنة النصية"، "علم النص"، "لسانيات الخطاب"، لكن أنسبها كان "لسانيات النص".

ويهتم هذا الفرع اللساني بدراسة جوانب عديدة في النص، أهمها التماسك وأدواته وأنواعه والإحالة وأنواعها، والسیاق، ودور المشاركين (المرسل والمستقبل)، باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى. ومن هذا المنطلق، يجب على الباحث في لسانيات النص أن یبقى بحثه محصورا في أبنية النصوص وصياغتها مع إحاطته بالعلاقات الاتصالية والاجتماعية

والنفسية العامة¹. وهي ذات الرؤية للباحث الألماني هربار ريك (Herber Truck)، الذي اعتبر لسانيات النص مثل "علم البنية النصية اللغوية"، الذي أخذ أهميته شيئاً فشيئاً ضمن مناقشات البحث العلمي في السنوات الأخيرة، فلا يمكن إطلاقاً اليوم أن تفهم على أنها تكملة ضرورية لتشكيل اللسانيات الوصفية، التي اعتادت اعتبار الجملة أكبر وحدة نصية، لتجد نفسها مجبرة على التوصل إلى إعادة بناء عامة للسانيات، تكون على أسس تعمل على تقديم النص الوحدة الأكبر لا غير²؛ وقد كتبت دراسات عديدة انتسبت إلى هذا الفرع اللساني بقوة المصطلح أم بقوة المنهج والآليات المعتمدة، فمنا بتسليط الضوء عليها وتوضيح منهجها وآلياتها في دراسات لنا سابقة³.

والحديث في هذا المقال ليس عن لسانيات النص في حد ذاتها، بل للحفر في البنية المعرفية العربية القديمة بفروعها المختلفة قصد الوقوف على الأطروحات والإسهامات المشتركة بين علوم العربية، ولسانيات النص، التي تقوم على دراسة اللغة، كأداة لممارسة التواصل، وكون لسانيات النص

¹- فولفجانجهاين منه وديترفيهيبيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1419/1998 هـ، ص 21.

²- Herbert Truck، "Linguistique textuelle et enseignement du"، p9، 1980، Paris، Hatier-Credif، traduit: Jean Paul Colin، français
³- ينظر: نعيمة سعدية، الخطاب الشعري عند محمد الماغوط-دراسة تحليلية من منظور لسانيات النص، رسالة دكتوراه، 2009-2010، جامعة بسكرة الجزائر، ص75-88. ونعيمة سعدية، الانساق النصي في الموروث العربي، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، العدد جامعة محمد خيضر-بسكرة، العدد الخامس، جوان 2009.

العلم الذي يسعى لمقاربة النصوص في المنجز الخطابي بأشكاله المختلفة.

ولما كانت لسانيات النص هي الدرس العلمي الموضوعي والمنهجي الدقيق للغة النص (أو الكلام) [شكلها ومضمونها، وتركيبها ودلالاتها وتداولها] كان علينا واجب التأصيل، والبحث عن الجذور لبعض المصطلحات والمفاهيم، التي اشتركت فيها لسانيات النص المعاصرة، مع الموروث العربي؛ فوجدنا بعضها في البلاغة أم العلوم ومعقل نقد النصوص، وآخر سكن كتب النحو العربي، وعليه كان لزاما علينا العودة إلى هذه الأصول في هذه الإطلالة التأصيلية، التي نحاول-بها- تسليط أشعة باحثة عن إسهامات وممارسات عربية، شكلت في - نظرنا - صورة الفكر اللساني النصي في هذا الموروث نحوا وبلاغة، إيماننا منا بأن علوم اللغة في الموروث العربي قد شكلت بمؤلفاتها الموسوعية الشمولية(أبوابها وفصولها) إرصاصات وإشارات تمكن الدارس اللساني المعاصر من إحداث هذه الإطلالة.

فكان المدخل إلى إبراز التفكير اللساني النصي فيما أفرزته جلاله البلاغة، في معانيها وبياناتها وحتى بديعها، فإذا كان الصرف والنحو، هما علم النظر في أبنية الألفاظ، وإعراب ما تركيب منها، فقد أخذت البلاغة بعلمها الثلاثة مهمة مكملة للمهمة الأساسية في النحو، وحتى الصرف؛ فأما علم المعاني، فقد اهتم بالقضايا التي تعمل على تأدية المعنى الذي يريده المتكلم؛ لإيصاله إلى ذهن السامع.

وأما علم البيان، فعمل على القضايا التي يحترز بها الكلام عن التعقيد المعنوي، أي أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد؛

ليكون إكمال هذه المهام بما أفرز العلم الثالث "البديع" من قضايا يريد بها تحسين الكلام، فتولى مهمة الجمع بين الجانبين.

فبعد تشكيل الكلام وتركيبه على طريقة تبعده عن التعقيد، تقريه إلى السلسلة والوضوح، والقصد لإيصال هذا الكلام إلى السامع، لا بد من تحسينه وتجميله بالمحسنات البديعية، تجعل القارئ أو السامع يتلذذ ويستمتع بذلك النظم ويغرب بذلك الالتحام والانسجام بين البنيات النصية؛ لأن البلاغة تتخذ بأقسامها الثلاث وضعا جديدا في سياق لسانيات النص، يتيح لها تجاوز أسوار الجملة الواحدة، والمعيارية في بعض إسهاماتها النظرية.

وعن ذلك يمكن القول، إن علم البيان يأسهم في إمداد الدارس اللساني النصي بمفاتيح البداية، التي يمكن من خلالها رصد حركة المفاهيم والعلاقات الرابطة بينهما في العالم النصي، وهو ما يجعل الجرجاني يقول: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأسبق فرعا، وأحلى جنى وأعذب وردا وأكرم نتاجا وأنور سراجا، من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي...، والذي لولا تحفيه بالعلوم وعنايته بها، وتصويره إياها لبقيت كامنة مستورة ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولا استمر السرار بأهلتها واستولى الخفاء على جملتها، إلى فوائد لا يدركها الإحصاء"¹.

و السكاكي يجعله العلم الذي يتطلب أعمال العقل (الفطنة والذهن) مع المعرفة فيقول: "وأما علم البيان، فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، إخراج وتقديم د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1422هـ-2002م، ص66

مختلفة¹، في حين يجعل من علم المعاني علما للتداول والمقاصد: " اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره..."²، فهو التركيب الجاري مجرى اللازم للفهم. فعلم المعاني في نظر السكاكي، هو الفرع الذي يتولى إبراز خاصية الإفادة في التركيب، وتحديد سياقه من أجل فهم أفضل لازم له، صادر عن كفاءة لغوية عالية (له فضل تمييز ومعرفة في اللغة). لذلك، نشير إلى أن علم المعاني في تراثنا العربي قد عرض لكثير من المسائل والأبواب التي تدخل الآن في صميم (نحو النص)، وبمصطلح عام "لسانيات النص"، والتي ركزت على بحث سلامة النص ودلالته؛ ولعله السبب الذي جعل فان ديك يقول: "إن الأمر في البلاغة يتعلق بصورة موجزة للغاية باستعمال واع وهادف ومعلل لمعارف جمهور المستمعين وآرائهم ورغباتهم، من خلال سمات نصية خاصة، أو الطريقة التي يتحقق من خلالها هذا النص في الموقف الاتصالي"³.

لقد انطلقت البلاغة في مباحث عديدة وقضايا مختلفة من منطلق المعالجة النصية كالإيجاز، والوصل، والفصل، والالتفات وغيرها من القضايا، التي أكدت التضام والاتساق بين الكلمات؛ وهي قضايا تجادلتها علوم اللغة قديما وحديثا؛ فتشاركت في ما يمكن مشاركته.

¹ - السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي ت 626هـ) مفتاح العلوم، ضبط: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407هـ/1987م، ص159.

² - المرجع نفسه، ص161.

³ - فان ديك، علم النص، (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، مصر،

ولعل هذا ما دفع ابن الأثير (ت 637هـ)، إلى القول: " وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالها اللفظية والمعنوية، وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن...، إن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة"¹.

وكان بابن الأثير، ينشئ علاقة تكاملية تنبئ بعلم يتناول النص من المستوى النحوي إلى الدلالي إلى البياني البلاغي، أي التداولي، أرسيت قواعده واستوى علما ذا مبادئ ومفاهيم وقوانين وآليات إجرائية للتحليل، في مطلع القرن العشرين (ق 20م)، ولكن تاريخيا، لمح منذ زمن بعيد، إذ قالت به النبوءة البلاغية بأقسامها جمعاء على السنة شيوخها وأعلامها الذين مارسوا قضايا نحوية بلاغية مشتركة ذات منطلق لساني نصي؛ لإدراكهم تمام الإدراك دور اللفظة عموما، والمصطلح خصوصا في نقل المعاني والأفكار إلى المتلقي، إذ كلما كان المصطلح دقيقا كان النقل آمينا، وكلما كان مدلول المصطلح مرتبطا بالمدلول العام للنص كان استعماله وجيها ومناسبا، وهو استعمال انفتحت به النصوص التراثية بمصطلحاتها على ما تقدمه اللسانيات اليوم.

¹ - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد بن محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ج1، ص07.

وأما علم البديع، الذي نسبت له مهمة التحسين والتزيين في الكلام، فقد أخذ دوره في هذا الوضع مأسهما فعالا في أبرز قضاياها: التكرار والاشتقاق الذي اتخذ درجاته الخاصة في لسانيات النص. وكان من أبرز وسائل التماسك النصي، حيث أسهم الطباق والتضاد، بطريقتهما في تحقق التماسك من خلال العلاقات الدلالية، وعبر الثنائية الضدية وحتى الجناس والتقسيم والمشاكلية، واتساق النظم*؛ ورد العجز على الصدر فهي وسائل لعبت دورا بارزا في تحقيق التوازي كظاهرة اتساقية، تأسهم بفاعلية شديدة في إحداث التماسك وغير ذلك من فنون البديع، التي أخذت موقعها في لسانيات النص وبرزت كأدوات ربط نصية. ناهيك عن إسهامات درس النحوي، في إطار حديثهم عن: الإسناد والضمير والشرط والعطف...الخ؛ فكان لهذا الموروث البلاغي النحوي، نقلة التحول من بلاغة المثال إلى بلاغة النص، ومن المعيار إلى القيمة والوصف.

وكان تزوج بعض قضاياهما إرهاسا للسانيات النص، التي قدر لها الاكتمال في العصر الحديث، في درس أوربي، وكتب علينا أن نكون من هذا المنطلق مؤصلين باحثين عن أصول هذا العلم (لسانيات النص) في موروثنا الثري والموسوعي، لا منظرين محققين لمراحل النشأة والتطور، التي تتلو المخاض المعلن، بتلك الإسهامات التراثية، وخاصة في إلحاحهم على فكرة الترابط، وارتباط الآي بعضها ببعض وأصل المعنى، وحديثهم بإصرار عن الوحدة والتماسك العضوي في القصيدة؛ وغير ذلك من

* اتساق النظم: وهو ما طاب قريضه وسلم من السناد والإقواء والاكتفاء، والإجازة، والإيطاء، وغير ذلك من عيوب الشعراء، وينظر في ذلك أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، 2000، ص 30.

المصطلحات اللسانية النصية الأصيلة، التي وجدت لنفسها مكانا في موروثنا، ولم تجده في الحاضر إلا بعد أن أمدنا هذا الدرس الأوربي بعلم يتناول النص بدراسة نحوية ودلالية/تداولية سمي لسانيات النص. و لعله الأمر الذي يشير له تأكيد الدكتور سعد مصلوح: "إننا حين نجهد لتحقيق هذه النقلة المنهجية نكون قد وضعنا جل العلوم ذات الأرومة العريقة في الثقافة العربية وضعا جديدا مفتوحا على أصولها التراثية من جهة، وعلى المنجزات المنهجية للفكر البشري في حياتنا المعاصرة من جهة ثانية. وما كان هذا الأمر ليقوم بفرد أو أفراد ولكن حرى به أن يكون هما معرفيا أصيلا.. بثقافة هذه الأمة في حاضر أمرها وقابله"¹.

ويدفعنا هذا إلى القول بأن من ابرز سمات النص التراثي وملامحه، تعدديته وبناءه المركب، وقيامه على آليات تسمح بإعادة قراءته وتطويره ومعاودة التفكير فيه بشكل دائم وجديد ومتجدد. ولعلنا نجد في قول القرطاجني، إشارة إلى ضرورة الانتقال من الجملة إلى النص: ".. لما يلاحظ في النظم من حسن الاطراد من بعض العبارات إلى بعض ومراعاة المناسبة ولطف النقلة.." ².

فبين ما يتطلبه-أولا- علم البيان من إعمال للعقل، وحكم على مدى الخطأ والصواب في التعبير (الصورة الشعرية) التي توجب العودة إلى

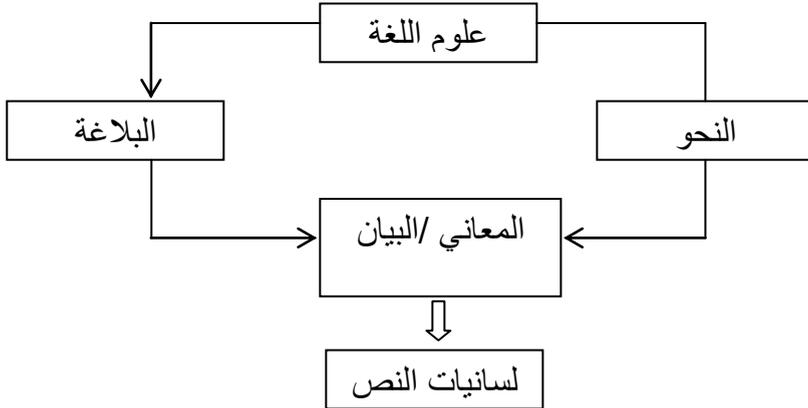
¹-سعد عبد العزيز مصلوح، في اللسانيات العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2009، ص242

²- أبو الحسن حازم القرطاجني (ت 684)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 2، 1981، ص 364.

متطلبات السياق، وخصائص الموقف، وبين علم المعاني الذي يقف على تتبع المتتالية النصية من أجل فهمها وتأويلها، بما يقتضيه الحال (السياق)، من أمور: الوصل - والفصل - الحذف - الالتفات، والتقديم والتأخير والإسناد.. الخ.

وبين قضايا النحو وقضايا البلاغة - عموما، كان علما البيان والمعاني، التي عدنا بقضايهما الجامعة النحوية والبلاغية باحثين عن الجذور التراثية، للسانيات النص، وإبراز الإسهامات العربية النصية في عملية إبراز الإسهامات عربية، في هذا العلم البكر من جهة، ومن أجل تشكيل صورة له في موروثنا العربي، بحسب متطلبات العصر آنذاك. من جهة ثانية.

وبين كلام المفسرين، في بيان إعجاز النظم القرآني، وإبراز التماسك الحاصل في آيه وقوانينه المناسبة، والعلاقات الدلالية، البارزة والضاربة في صميم هذه المؤلفات، من جهة ثالثة. كان لا بد أن يكون لهذا العلم المعاصر جذورا في موروثنا، لا يستطيع نفيه عاقل:



1. صناعة الكلام:

وإذا تقرر مبدأ التأليف وصناعة الكلام "وجب على طالب البيان أن يعرف قبل المشروع معرفة معنى "الفصاحة والبلاغة"؛ لأنهما محوره، وإليهما مرجع أبحاثه، فهما الغاية التي يقف عندها المتكلم والكاتب، والصالاة التي ينشدانها، وما عقد أئمة البيان الفصول، ولا بويوا الأبواب إلا بغية أن يوقفوا المسترشد على تحقيقات وملاحظات وضوابط، إذا روعيت في خطابه أو كتابه، وبلغت الحد المطلوب من سهولة الفهم وإيجاد الأثر المقصود في نفس السامع، اتصف من ثم بصفة الفصاحة والبلاغة. يقول الجرجاني: "في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة.

وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في الخفاء وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين؛ ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبني عليها، ووجدت المعول على أن هاهنا نظما وتأليفا وتركيبا، وصياغة وتصويرا ونسجا وتحبيرا، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هو مجار فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها"¹.

إذن فالفصاحة هي خصوصية في نظم الكلم وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، في نسق الكلام، عبر علاقات تجاور تبرز قدرة وقصد وفائدة المتكلم من إدراجه هذا النسق التركيبي الخاص؛ لأن الكلمات تكتسب سماتها من موقعها في سياقها اللغوي مستثمرة ما يمكن أن يتميز به من خصائص محدودة، فلكل كلمة مجال من التأثيرات الممكنة يختلف طبقا للسياق والقصد والكفاءة اللغوية.

¹ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص91

وأخيرا لحسن النظم والترتيب في إخراج ذلك النص، وكلها أمور تعود إلى ما أسمته لسانيات النص بالبنية الكلية أو موضوع الخطاب؛ باعتبارها الموضوع الذي " يؤثر في تشكيل البنية على نحو معين، فهو الذي يستدعي استخدام كلمات ذات طابع خاص، وخلق مجاورات ومحاورات بين الألفاظ وتشكيل الموسيقى والصور¹ واستعمال الرموز والأساطير في سبيل تحديد معمارية النص، ليكون نصا قابلا للقراءة والفهم. هي قضايا قام بعرضها الجرجاني عبر هذا التمييز الشمولي بين ما أسماه الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة ليدرج روعة ونفسا لسانية نصية، امتدت سنين متقدمة.

فقد حاول البلاغيون القدامى وضع الأسس والمعايير لهذه الصياغة، سواء على المستوى الشعري أو النثري فألفوا في ذلك كثيرا من الكتب وأفردت له الفصول والأبواب، ووضعت الرسائل ومنها: (رسالة عبد الحميد الكاتب (ت132هـ)، ورسالة بشر بن المعتمر (ت 210هـ)، ووصية أبي تمام (ت 228هـ) للبحثري في صناعة الشعر... وغير ذلك من الوصايا والرسائل التي اهتمت بوضع قوانين وأسس صناعة الكلام، شعرا ونثرا.

أما الكتب التي تناولت هذه القضايا بوجوه مختلفة فهي كثيرة، يأتي على رأسها "البيان والتبيين" والحيوان للجاحظ (ت 255هـ)، والذي شكل بمؤلفاته فترة مخاض لاهتمامات عربية، من أجل ما سمي صناعة الكلام، أو "فن التأليف" والذي يمكن اعتباره باكورة القضايا اللسانية النصية في

¹ - ينظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005، ص17-19.

هذا الموروث، أين تعرض الجاحظ إلى قضايا لسانية تعلقت بالكلام، أي النص تعلقا شديدا، مثل قضية اللفظ والمعنى، والإيجاز، والسبك (أي الاتساق)، يقول: "هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة"¹، إذ جعل لكل صناعة ألفاظها، التي تنتظم بشكل خاص مقاما معيناً، وحالا خاصة، تعرف بفضل الكلام، والمتكلم به، ليكون الجاحظ بكتابه (الحيوان/البيان) صاحب فضل في مخاض لسانيات نص عربية أصيلة، أو بالأحرى نراها كذلك.

وهي فكرة أوضحها جون مشال أدام (Jean.M. Adam) بأسلوبه الخاص في كتابه "Linguistique textuelle"؛ يقول: "تهتم لسانيات النص بوصف المبادئ العليا التي تحكم الترتيبات المعقدة وغير الفوضوية (أي المنظمة) المتناسبة داخل نظام وحدة النص المتميزة والمنجزة"².

وفي أسس هذه الصناعة يقول أبو تمام الطائي لأبي عبادة البحري^(*): "يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، فإن أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رقيقاً وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق،

¹ - الجاحظ: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج2، ص27. وينظر: المرجع نفسه، ج3، ص 368، 367.

² - Jean Michel Adam، "Linguistique textuelle des genres de discours aux textes"، Nathan، Université، Paris، 1999، p35.

* وردت الوصية بقريب من هذا الوجه فيما نقله لابن عاشور، ونقله القرطاجني في منهاجه، وابن أبي الإصبع سار على نهج من تقدمه في صناعة الكلام أمثال: أبي تمام، وبشر بن المعتمر، والجاحظ، وابن طباطبا والعلوي، والعسكري، وابن الأثير.

وإذا أخذت في مدح سيد ذي آياد فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرف مقامه وتغاضي المعاني واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرزية، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن النظم فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك لما سلف من شعر الماضين، فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى¹.

لعل هذه الوصية التراثية تتلألاً حادثة من خلال عبارات عديدة تضمنتها: تخير الأوقات- يقصد الإنسان للتأليف، اللفظ الرقيق، المعنى الرشيق، بيان الصبابة- كأنك خياط- حسن النظم، الشهوة، تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين؛ إذ تثير هذه العبارات وغيرها قضايا لسانية عديدة، لعل مجملها مرتبط بالنص، أي بلسانيات النص وهي الإعلام، إذ كل نص في رأي أبي تمام يريد أن يعلم بشيء ما، وهذا الإعلام مصحوب بقصد معين زيادة على قضية رشاقة المعنى وانسجامه مع لفظه، لتحقيق بيان معين.

ومن أجل حسن نظم وتأليف يحقق الوحدة الكلية للنص الذي نسج على سنة السلف، وهي بنظرة حديثة قضية التناص، وتفاعل النصوص؛ لأن النص تفاعل معرفي قبل أن يكون بنية لغوية، تندمج فيه دينامية الاستجابة المرئية في طبقاتها السطحية ضمن ما تحويه من الموجود الملموس، مع روح التأمل الداخلي، قصد إدراك مخيلاته المخفية، ومن خلال ذلك تأتي القراءة الحديثة لمحاولة استجلاب أسراره، مع ورود

¹ - القرطاجني، منهاج البلغاء وراح الأدباء، ص 203

منعرجاته الاحتمالية، إلى تصور تأملي، تتفق فيه الذات مع الآخر وفق مبادئ مشتركة تمثلها الشهوة، بمصطلح أبي تمام، واللذة والمتعة عند رولان بارث (R. BARTRES)، التي ولدت النص في نفس وذات صاحبه، من أجل أن يلقاه الآخر بلذة ومتعة تساويها أو تفوقها لتحقيق فعل القراءة.

وعلى الرغم من الإسهاب الحاصل في الوصية، نظرا للارتجال، يشعر القارئ أنها مركزة موجزة ومقتضبة، ما دفع ابن أبي الأصبع المصري (ت 654 هـ)، إلى القول عنها إنها: "تحتاج إلى تحرير لبعض معانيها، وإيضاح ما أشكل منها وزيادة تفتقر إليها"¹، فحاول توضيحها وشرحها بشكل يكاد يكون علما دقيقا في كتابه "تحرير التحبير"، ولكن كله إيمان بما جاء في وصية أبي تمام في صناعة الشعر.

فهو يراها نبراسا يستضاء به في هذه الصناعة، ودستورا يعتمد عليه ويتمسك بأهدابه ومنهجا يجب أن يسلكه كل من حاول صناعة الكلام، في قضايا تخير المعنى قبل تخير اللفظ، وحسن النظم وسلاسته. وكما يقول كل من فيهيفيجروهاين منه: "إن أبنية النصوص ليست في الواقع إلا نتائج عمليات نفسية، مما يسمى لفظيات سريعة؛ لإظهار نتائج الإجراءات الإدراكية على السطح"²، بألفاظ مختارة تصل بسلاسة إلى القارئ.

¹ - ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: د/حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ/1963م، ص17.

² - فولفجانجهاين منه & ديترفيهيفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص11. وينظر: صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص163.

وكذلك كتاب "عيار الشعر" لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت 322هـ)، الذي كان منهاجا لتأليف ونظم الكلام بطريقة معقولة تولد فهما سليما صائبا له، حاول به ابن طباطبا وضع قواعد وأسس نظم الشعر، فيقول: "إذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما، مصفى من كدر العي مقوما من أود الخطأ واللحن، سالما من جور التأليف وموزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له وأنس به"¹؛ قضية-نراها- لسانية نصية مرتبطة بالجانب النفسي الإدراكي، ألا وهي "الفهم" يطرحها ابن طباطبا بأسلوبه، كما يفتح الكلام على نوافذ السياق المتعددة، مع منح الكلام صفات التشابك والتعقيد والانفتاح، ليصطدم نص ابن طباطبا بما تفرزه لنا الحداثة في تحديدات النص وتقابلاته.

ويزيد عليه قائلا: "والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له، وحدثت لها أزيحية وطرب، فإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت، وللشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه... ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى وهي موافقته الحال التي يعد معناه لها"².

ويعتبر ابن طباطبا الشاعر أو الناص - بمعنى أعم - "كالنساج الحاذق الذي يفوق وشيه بأحسن التفويف، ويسد به وينيره، ولا يهلل شيئا منه فيشينه، وكالناقش الرفيق الذي يصنع الأصابع في أحسن تقاسيم نقشه،

¹ - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط3، ص52.

² - ابن طباطبا، عيار الشعر، ص53، 54.

ويشبع كل صنع منها، حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكنائمه الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها"¹؛ لأنه يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وما قبله.

ولذلك راح يلزم كل شاعر جيد بشرط من الضروري اتباعه في تأليفه قائلا: "ينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحة، فيلائم بينها لتتنظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه، وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذي يسوق القول إليه، كما إنه يحترز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد الكلمة عن أختها ولا يحجز بينهما وبين تمامها بحشو يشينها، ويتفقد كل مصراع، هل يشاكله ما قبله؛ فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر، فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه"²، وكلها قضايا أصبحت فيما بعد من صلب اهتمام لسانيات النص، حيث يتم تقرير أن النص "قواعدي" أو "حسن التكوين" ، ..أو أنه جيد الترتيب والإخراج.. وهي أمور تعمل على تحقيق فعل دمج الدلالة في معجم النص"³.

وللعسكري محاولة في وضع ما يلزم في الصناعتين النثر والشعر، لإحداث الترابط وصنع الكلام السلس الفصيح، الذي يراعي مقام وحال

¹ - المرجع نفسه، ص 43، 44.

² - المرجع نفسه، ص 165.

³ - p392. ،katiewales.A dictionary of stylistics

وينظر: إلهام أبو غزالة، مدخل إلى علم لغة النص(تطبيقات لنظرية روبرت دي بوقراندوفولفاجنجريسلر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1999، ص49.

أصحابه (وبتمييزه بين الفصاحة التي هي آلة تمامها البيان والمرتبطة باللفظ والقاصرة عليه، وبين البلاغة التي جعل منها مصطلحا يقتصر على المعنى فحسب، ومرتبطا بالنفس والقلب؛ يقول العسكري: "الكلام...يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخيره لفظه، وإصابته معناه وجودة مطالعه، ولين مقاطعه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بهواديته وموافقة مآخيره لمبادهيه، مع قلة ضروراته، بل عدمها أصلا حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه"¹.

لقد شكل العسكري امتدادا عريقا بقضاياه التي تستعمل في بناء الشعر والنثر، أي التي تحقق إنتاج الصناعتين، لقضايا اللسانيات النصية المعاصرة، من ترابط وانسجام وسياق حال، الذي تحدث عنه فان ديك وهاليداي وغيرهم؛ إذ يعني المرء في تخصصات علمية مختلفة بوصف النصوص إلى جانب أشياء أخرى.

ويحدث هذا انطلاقا من وجهات نظر مختلفة ومن خلال معايير كثيرة، والمتعلقة بأبنية النصوص المختلفة². ولما اتخذت العلوم مختلفة قضية العناية بالنصوص على اختلافها ووصفها غاية لها، كان عليها تطويعها لمنهجها واتجاهاتها المتعددة، بما يتلاءم تركيزا مع البحث عن الأبنية النصية المتباينة، أو عن وظائف النصوص وتأثيراتها، وقد تولت البلاغة بأقسامها وفروعها وقضاياها -منذ القديم- ممثلة في كتاب الصناعتين وغيره دراسة البنية الخاصة والوظائف الجمالية والبرهانية والإقناعية لنصوص وأقوال أدبية لأن الكلام مظهر لغوي متعدد الدلالات والأبعاد بين

¹ - العسكري، الصناعتين، ص 55.

² - ينظر: فان ديك، علم النص، ص10.

مرسل ومرسل إليه، يختص الأول بإبراز قضايا وجوانب يقصد إسقاطها في ملفوظاته، وأما الثاني يتلقاها ليبدأ بها رحلة القراءة والتأويل، وإظهار الجوانب الجمالية والفنية التي تلالأت في سمائه؛ فروية العسكري إسهام آخر فعّل تشكل هذه الصناعة، أو هذا الفن، 'فن تأليف الكلام'، الذي تلاقت وتفاعلت وتلاقحت نصوصه وبعض قضاياها، مع نصوص وبعض قضايا لسانيات النص، ما يجعل هذا الفن صورة تعكس اللسانيات في محاورتها النص بعمومه، والأدبي بخصوصيته.

يقول أيضا: "... وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سببياً ورصف الكلام رديا لم يوجد له قبول...¹؛ لأن صحة السبك والتركيب، والخلو من عوج النظم والتأليف، شرط لكمال النظم، ووضوح الفهم مثل الاتساق الذي عد النص . من خلاله . نصا باعتباره معيارا رئيسيا من معايير النصية لذلك نجدهم يشيدون بالشعر الجيد المسبوك، وفي هذا يقول-أيضا- الجاحظ: "أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"².

وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه، وخف محتمله وقرب فهمه وعذب النطق به، وحلى في أذن سامعه، ولا يكون كذلك إلا إذا كان متسقا، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه وثقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء. ولذلك

¹ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 161.

² - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 55.

يستحسن القيرواني " أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته، واللفظة كأنها حرف واحد"¹.

ولو تسنى له أن يكمل هذه الفقرة النفيسة في كتابه لقال: "والقصيدة (نص)"، كأنها جملة واحدة تتأخذ أجزاءها وتتماسك، حيث اعتمدت على قواعد النظام اللغوي لاسترجاع الاتصال اللغوي، .. والقائم تماسكها على معرفة شعرية النص المبنية على الوسائل اللغوية المستعملة والتميزة، متبعة مبدأ التعاون والتزواج بين علم اللغة والدراسات الأدبية من أجل صياغة النص الشعري، ومرتبطة بقضايا النص والخطاب²

ويؤكد الجرجاني على أهمية الترابط بين أجزاء الكلام قائلا: "إن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض.. وأن يكون حالك فيها، حال الباني يضع بيمينه هاهنا، في حال ما يضع بيساره هناك. وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعها بعد الأولين...واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته، أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق.."³.

فصاحب الدلائل يشرح في هذا النص معنى الاتساق بصورة، تكاد تكون أقرب إلى مفهومه عند علماء لسانيات النص، بل تكاد تكون أوضح

¹ - القيرواني (أبي علي الحسن بن رشيق الأزدي (ت 456 هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، 1401 هـ / 1981، ج1، ص 257.

² - voir; Maigeneaux 'L'analyse du discours ' p 48.

³ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 137.

من شرحها في العصر الحديث؛ وذلك لأن المفردات اللغوية لا تمثل إلا ناحية جامدة هامة من تلك اللغة، فإذا نظمت ورتبت ذلك الترتيب المعين، سرت فيها الحياة، وعبرت عن مكنون الفكر، وما يدور في الأذهان. وليست اللغة -في حقيقة أمرها- إلا نظاما من الكلمات التي ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، تحتمه قوانين معينة للغة¹.

كما يتظاهر لنا في هذا المقام أن الناظم مهندس بناء، كما صورته البلاغة العربية والجرجاني في نص نفيس وبديع قام بتلخيص نظريته في صورة هندسية، لا يعتقد أن الدراسات اللسانية القديمة أو الحديثة فكرت في مثل هذا التصور العجيب بين البناء اللساني والبناء بالآجر عند رصف البناءات ورصها في اتجاه أفقي وإعلانها في اتجاهها العمودي مع مراعاة الجهات والأبعاد الأخرى وتكامل اللبنة أو تباينها واتسجام الأجزاء وتناسقها واتساقها لتحقيق البنية في الصورة الهندسية، التي اختارها المهندس لإنجاز بنائه المشيد، طبقا للصورة المثالية، التي ارتسمت في ذهنه قبل الشروع في البناء.

والناظم الذي تقوم هندسته على نظم أجرات النص (كلماته)، ورصها في الجدار الكلامي رصا تراعى فيه الأبعاد الفضائية والسطوح المختلفة انطلاقا من النقطة، والمرور بالخط والوصول إلى المساحة²؛ فتتحقق مطابقة الكلام لسياقه، من حيث إفادته المعاني الثواني، والتي هي الأغراض المقصودة للمتكلم، ما يجعل كلامه مشتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق سياق الحال، وهي قضايا تمتد إلى مجالات

¹ - إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 295. ينظر: محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت، ص 226 وما بعدها.

² - ينظر: محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص 35، 39

متنوعة غيرها، مثل: علم الاتصال، علم الاجتماع، نظرية التعامل والتداول، علم النفعية أو المنهج العملي، أو المناهج التجريبية في البحث الاجتماعي¹، في اللسانيات المعاصرة، التي تخضع كل ما تحتاجه في سبيل تحقيق الغاية والمقصد، ألا وهي فهم النص والوقوف على معانيه ومقاصده.

وعن مجمل ذلك، يقول ابن الأثير: "اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة، وقد قيل ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم، حتى قيل: كل ذي علم يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول: فلان النحوي، وفلان الفقيه، وفلان المتكلم، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول فلان الكاتب، وذلك لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن، وملاً هذا كله الطبع، فانظر أيها المتأمل إلى هذا التفاوت في الصناعة الواحدة من الكلام المنثور ومن أجل ذلك قيل: شينان لا نهاية لهما: البيان والجمال"².

فصناعة الكلام أو الكتابة في مواضع أخرى صناعة لم ترتبط بأي علم ولا عالم، ما تحتاجه هو الآلات الكثيرة والتي يتحكم فيها الطبع إلى غاية البيان والجمال، أي اللذة والإثارة والتأثير لتحقيق قوة الناص وشاعريته وشعرية النص وفاعليته. ولعل في سبيل كل ذلك يضع ابن الأثير ثمانية آلات كشرط لتحقيق فن الكتابة، أو "صناعة الكلام"، وهي³:

1- معرفة علم العربية من النحو و التصريف.

-1. voir/Jean- Louis chiss/jacques Filliolet et Dominique Maingueneau ‘ introduction a la Linguistique Française ‘Hachette ‘paris ‘2001 ‘tome 1.p 48.

-2. ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص7، 8.

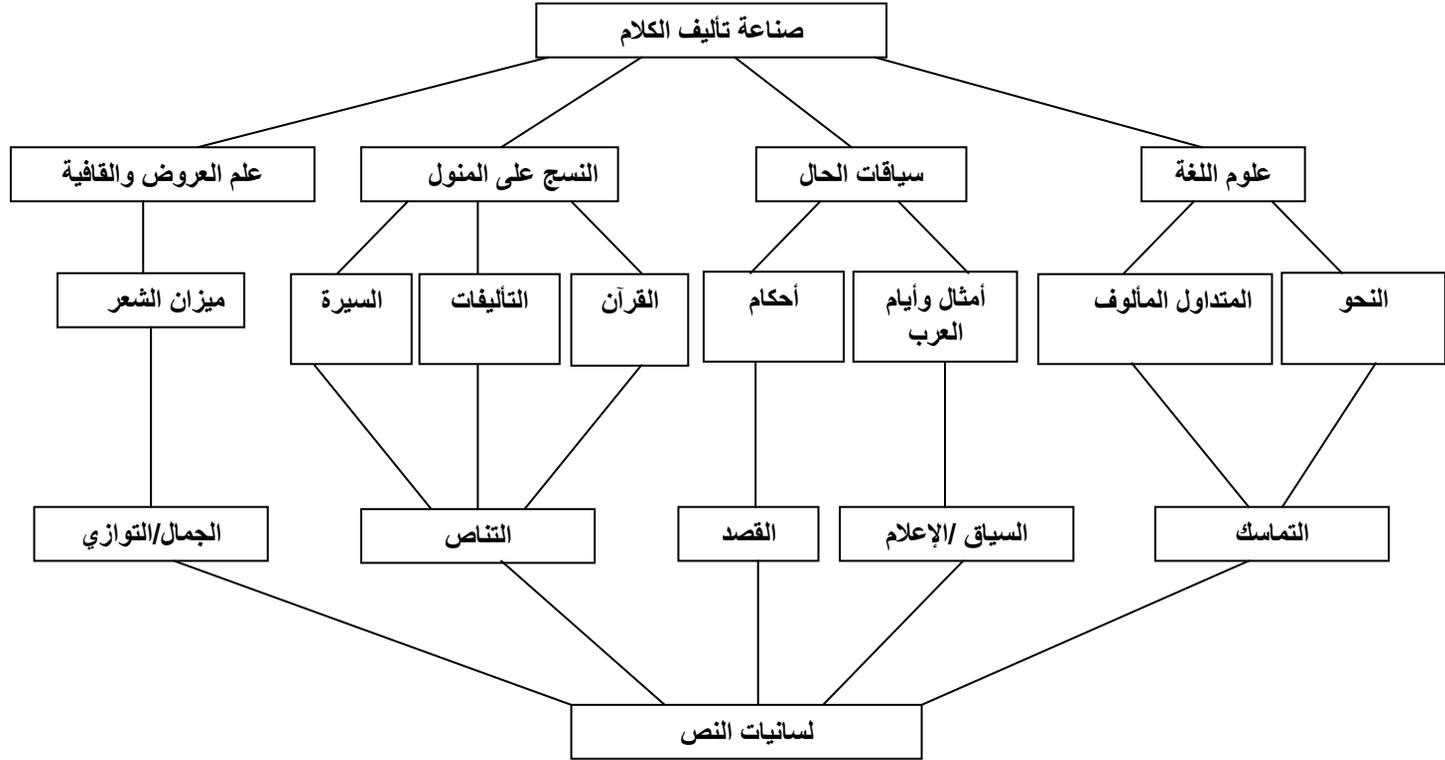
-3. ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص 09، 10.

- 2- معرفة ما يحتاج إليه من اللغة (المتداول المؤلف).
 - 3- معرفة أمثال العرب وأيامهم.
 - 4- الاطلاع على تأليف من تقدمه من أبواب الصناعة المنظومة والمنثورة.
 - 5- معرفة الأحكام السلطانية (الإمامة، الإمارة، القضاء).
 - 6- حفظ القرآن الكريم وإدراجه في مطاوي الكلام.
 - 7- حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار (الواردة على النبي صلى الله عليه وسلم).
 - 8- معرفة علم العروض والقوافي (أي ميزان الشعر).
- لقد أوجب ابن الأثير على ناظم الكلام أن يمعن النظر في علوم البلاغة، حتى يستطيع معرفة محاسن اللفظ مفردا ومركبا، ويحيط بما يتفرع من أصول النقد الذي منه البديع الذي هو رقوم الكلام، ونتائج مقدمات الإفهام، وليجعل عمدته على كتاب الله العزيز، وليميز إعجازه أدق تمييز، فإنه البحر الذي لا تفنى عجائبه ولا يظماً فيه راكمه، منه استخرجت درر المحاسن، واستنبطت عيون المعاني، وعرف كنه البلاغة وتحقق سر الفصاحة، ولما خصه الله به من جودة سبك وحسن الرصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز، وعذوبة الألفاظ، وجزالتها وسلاسة المعاني ورشاقته¹.

¹ - ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص12. وينظر: ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ج1،

تقوم الدراسة النحوية للظواهر اللغوية عند ابن الأثير على المقارنة بين "علم البيان" و"علم النحو**"، وفي ذلك دعوة صارمة إلى تزوج بين "القواعد النحوية البلاغية" والإحساس الفني الجمالي، لأن النص ليس نظاما من الوحدات اللغوية التي تستهدف الفهم فحسب، وإنما هو نظام ذو وظيفة تأثيرية، وبهذا التزوج وآلياته، نتميز جيد الكلام من رديئه، كون العلاقات التي تربط بين مفردات الكلام من ناحية، وبنيتها البيئية الاجتماعية النفسية، من ناحية ثانية، قد تشكل سياق جديدا مغايرا، يعود برمته إلى المتكلم، والنسق والنص والقصد والقارئ، ليقراً قول ابن الأثير عن فن تأليف الكلام كالتالي:

**وظيفة النحو هي استخراج مبادئ اللغة ونظمها، استنادا إلى الاستعمال المشترك، وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد، والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية التي هي الإبلاغ ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي تفصل بين الخطأ والصواب، ومن ثمة تساعد هذه المبادئ على تفسير البناء اللغوي تفسيراً يقوم على توضيح العلاقات وكشف الترابط بين أجزاء القصيدة (النص). يقول ابن الأثير: "أما علم النحو فإنه في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي". ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص11.



يفتح ابن الأثير نافذة كبرى على دراسة النص، وفق هذه الآليات، التي وضعت "فن الكتابة"، ويشعر بأحكام الكلام، مسبقا لما سمي في الدرس المعاصر "لسانيات النص". كما أن المتأمل في قضايا النحو والبلاغة لدى العلماء، وفي إطار حديثهم عن التماسك الحاصل في تأليف الكلام، أو صناعة الكلام أو الصناعة الشعرية، وربطها بالرغبة وسياق الحال، تبين رؤية متكاملة* واضحة المعالم والحدود، تحكمت في تحليلاتهم ومناقشاتهم ووصاياهم لقضايا الكلام والنص-خاصة القرآني- وقد استطاع العلماء من خلالها أن يتجاوزوا ذلك الإطار الضيق الذي لم يتعد تحليل الجملة أو مجموعة الجمل الذي فرضته القواعد المعيارية التعليمية على مستوى النحو أو البلاغة؛ ذلك أن البلاغة ليست أمرا مستقلا عن النحو، وأن البلاغة تساعد اللغة على أداء وظيفتها البلاغية شرط أن تدرس عنصري اللفظ والمعنى.

وهي فكرة وجدت صدى لها في لسانيات النص، "لأن كل عبارة متلفظ بها ينبغي ألا توصف فقط من جهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها، بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام للإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة"¹..

*هناك قضايا عديدة دفعتنا لهذه الرؤية: التماسك بين الآي-المناسبة (علاقة مقاميه)، العلاقات الاستطرادية-التمثيل - حسن التخلص، التشاكل النحوي- الحذف وتقدير المحذوف، التضاد-الحديث عن المقاصد والإفادة، هذه أدق القضايا التي قامت عليها لسانيات النص، خاصة عند فيهيفيجر، في حديثه عن السياق والترابط المفهومي، والمناسبة في تحليل المحادثة، والوصل والمتواليات النحوية عند فان ديك، كل هذه وأكثر دفع بنا إلى القول بهذه الرؤية التي لا تخفى عن أحد أراد أن ينظر إليها، ويتأمل تضاريسها ويرى مكنوناتها.

¹ - فان ديك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص18. وفان ديك، النص بنياته

ومنه، فالبلاغة اشترطت على الأول- في تمام وظيفته- إن أراد عدولا وخروجا عن معايير اللغة، أن يشير إلى ذلك بقريئة تمنع من فهم التركيب على الحقيقة، وتوجه الفكر إلى المعنى المجاز بالذي أراده مع عدم الغلو والمبالغة في ذلك إذ عدوها عيبا لا بد من الابتعاد عنه. كما اشترطت على الثاني، إذا أراد السفر في رحلة فهم "غير ظاهر النص"، أن يستند -في تأويله- إلى حجة تبرر فهمه ذلك.

وكلا الطرفين مجبر على احترام قواعد اللغة، والعرف اللغوي، وهي أمور وقضايا تأكدت في اللسانيات الحديثة وتمت معالجتها بروى جديدة. ليكون ذلك- إسهاما عربيا بلاغيا تراثيا أصيلا، لا يجب أن نتجاوزه ولا نستطيع، بل علينا إبراز عبقريته ما أمكن، وإظهار ما فيه من شمولية وموسوعية.

ولم يبتعد ابن خلدون كثيرا عن هذه الرؤية، في طرحه لقضية صناعة الشعر التي تجدها تركيبة كيميائية من قضايا علم النحو، وعلوم البلاغة، وعلم العروض، ما أسماه: وظائف الإعراب، ووظيفة البلاغة والبيان، ووظيفة العروض** على التوالي. يقول: "اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حملت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف،

وظائفه، نظرة الأدب في القرن العشرين، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، 1996، ص 51، 52. وينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص 220، 221.

**في حديث ابن خلدون عن علم النحو وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب، وكان به سعي إلى ضرورة اتجاه ينتقل من نحو الجملة إلى نحو النص.

الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع"¹.

يضعنا هذا النص الخلدوني أمام جملة من قضايا وأسس لسانيات النص: الملكة اللغوية، وجودة السبك والتعبير عن المقصود مراعاة التراكيب لأداء البنية الكلية أو الوحدة الدلالية، وموضوع الخطاب والبنية الكلية، ومقتضى الحال وقضايا السياق والخلفيات المرجعية، إفادة السامع.. الخ من قضايا اللسانيات الحديثة عموماً.

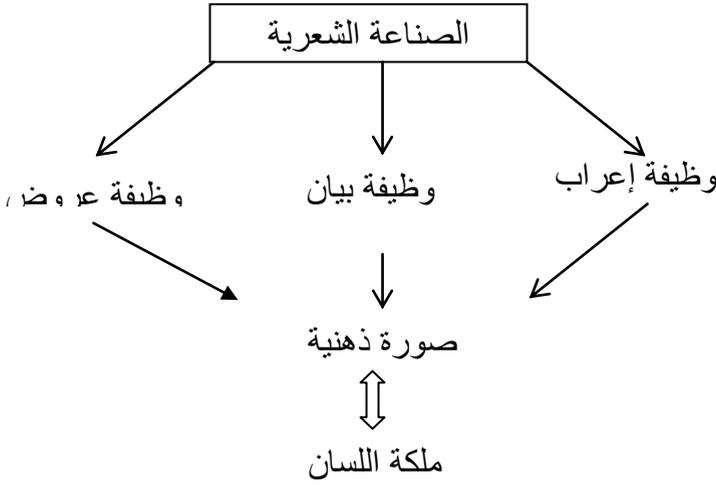
و تشكل مقولة ابن خلدون أساساً هاما لهذا الاتجاه في تراثنا الفكري أو ما سماه " علوم اللسان العربي" التي تفرعت إلى علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب؛ يقول: " ولا يُراجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب؛ باعتبار الإعراب والبيان، فيرصّها فيه رصا كما يفعله البناء في القالب أو السياج في المنوال؛ حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة"²؛ لأن فهم العبارة

¹ - ابن خلدون، المقدمة، ضبط وشرح: محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425/2005م، ص508.

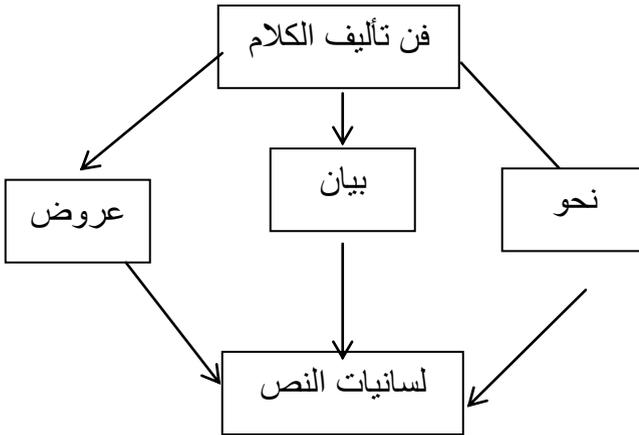
² - ابن خلدون، المقدمة، ص522.

لا يحصل إلا بفهم أبعادها الدلالية وموقفها الاتصالي وموقعها فيه، لأن التواصل الإنساني يتم عبر ارتباط الدلالات بالأصوات اللغوية؛ حيث ترتبط مكونات الأداء الكلامي وتتفاعل في أداء سليم تحت رعاية القواعد الشكلية التي يكتسبها الإنسان من كفايته اللغوية، ورعاية ما يتوصل إليه ذوقه الخاص والمغل في الحكم على فصاحة الكلمة في البنية النصية. ولهذا كان "فن" تأليف الكلام منفردا عن نظر النحوي والبياني والعروضي¹، أي أن ابن خلدون يعتبر فن تأليف الكلام مزيجا ثلاثيا:

* وردت في نص المقدمة بلفظ "من" وهو تصحيف، إذ لا يستقيم المعنى بها، والأقرب إلى المقصود هو ما ذكرنا.
1- المرجع نفسه، ص 524.



ونلمح في آراء ابن خلدون إشارة إلى تداخل العلوم التي تتعامل مع النص، بعبارة "والأخذ من كل علم بطرف"، وإعطاءها صبغة شمولية/كلية، وكأن به حديثاً عن لسانيات النص (التركيب، الدلالة البلاغة، العروض):



ويدفعنا هذا إلى رسم موروثنا العربي بالحدثاء في معظم قضاياها وطرائق البحث فيه، خاصة العذراء منها التي لم تتزوج مع غيرها، وتملك قضايا خاصة تقوم عليها كحديثهم عن السبك، والدخول في غياهب الربط، وافتتانهم بالتكرار وتقسيماته بشكل ما تحدثنا عنه من قبل، كما

تجلي عند السجلماسي، وكلامهم عن فن الأسلوب بعلمية ومنطقية، تجعل القارئ وكأنه يقرأ ما تفرز الحداثة اليوم.

ذلك أن القول بحداثة موروثنا النحوي/البلاغي، لا يجانب الصواب مطلقا مادام هذا الموروث تسكنه مثل هذه الحركات التجديدية التي لم تهدأ على هيئة، ولم تستقر على حال في مستواه الدنيوي الأمر الذي يمنحه حاضرا منفتحا دوما على التجديد والاستمرار نحو الإبداع؛ "لأن الحداثة- وبنعمة الله وفضله- مستمرة ما تطلع الإنسان إلى التفكير وما اشرب إلى التجديد، وما حرص على استكشاف المجهول، وما طمح في ارتياد آفاق المستقبل المفعم بما يدهش ويذهل"¹.

خاتمة:

وصفوة القول، إن ما قاله علماء البلاغة بشأن صناعة الكلام، وما أفرزوه من نصوص تحتل معنى واحدا لا يقبل التأويل في أذهانكم، ووفق مرجعياتهم اللغوية وسياقاتهم المعرفية آنذاك، وحملت معاني عدة في دراساتنا الحديثة والمعاصرة، التي تحاول دوما استنطاق الموروث من خلال مصطلحاته الموسوعية ونصوصه الشمولية، من أجل إحداث إطلالة تراثية.

وهذا عن دلّ على شيء إنما يدل على جهود قيمة لا يستهان بها في هذا الموروث، ولا يجب تجاهلها إذا أردنا أن نؤسس للسانيات نص عربية، على الرغم من كونها جهودا ومحاولات مترامية أشتاتا وفرادى، والتي لم يقدر لها أن تكون نظرية قائمة بحد ذاتها، وقادرة على مقارنة

¹ - حبيب مونسي، فعل القراءة، النشأة والتحول-مقاربة تطبيقية في قراءة القراءة عبر أعمال عبد الملك مرتاض، منشورات دار الغرب، وهران، الجزائر، ط1، 2002/2001، ص 266.

النص مقارنة وفق منظور اللسانيات المعاصرة، كونها محولات فرضتها النصوص المنجزة آنذاك، من جهة، كما فرضتها المرجعية الفكرية النصية من جهة ثانية.

ويبقى موروثنا الفكري بشموليته الحضارية، لا يدعو أن يكون في جوهره مخزونا معرفيا وثقافيا، خاصة النحوي والبلاغي منه، والذي يظهر للدارس في صورة قضايا لسانية، تسمح بمقاربة ما أفرزته اللسانيات المعاصرة، في بعض قضاياها، إن لم نقل معظمها، وسبل الوصول إليها، والتعامل معها بتدبير منعم، وتفكر ثاقب لنصوص هذا الموروث؛ فنظورها عملية استدلالية استكشافية لقضايا الحاضر اللساني النصي على الغائب، في موروثنا البلاغي والنحوي، فكل ما تقدمه لنا الحداثة إنما له جذور في التراث، لأن التراث غني، نجده بحق "ثروة الأجيال".